المبحث الثاني

الشخصية الإقليمية في الفكر الجغرافي الحمداني

obeikandl.com

obeikandl.com

في كتابه الأشهر «شخصية مصر..دراسة في عبقرية المكان» الصادر علي مدى عدة سنوات وفي عدة طبعات، والذي صدر لأول مرة في عام ١٩٦٧ [١]، ثم نُشر موسعاً في عام ١٩٧٠ [٢]، ثم موسوعياً فيما بين عامي ١٩٨٠ و١٩٨٤ [٣] أكد «حمدان» أفكاره الجغرافية الإقليمية وهو يكتب عن «شخصية مصر» مؤكداً ما سبق له أن كتبه قبل ذلك في عامي ١٩٥٧ و١٩٦٤ .

«فإن تكن الجغرافيا في الاتجاه السائد بين المدارس المعاصرة هي التباين الأرضي Areal Differentiation أي التعرّف علي الاختلافات الرئيسة بين أجزاء سطح الأرض علي مختلف المستويات فمن الطبيعي أن تكون «قمة» الجغرافيا هي التعرّف علي شخصيات الأقاليم [٤] وبهذا التعريف يصبح الإقليم هو قلب الجغرافيا، والشخصية الإقليمية هي قلب الإقليم وأعلي مراحل الفكر الجغرافي.

والشخصية الإقليمية عند حمدان «أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص الإقليم وتوزيعاته» إنما هي تبحث أساساً عما يعطي منطقة ما تفردها وتميزها عن سائر المناطق من أجل الوصول الي «روح المكان» لتستشف منها «عبقريته الذاتية» التى تحدد «شخصيته الكامنة»، وإذا كانت ميزة الجغرافيا وصميم أصالتها كما كتب «فيدال دي لابلاش La Blache , P.V. (١٨٤٥-١٩١٨)» هي أنها «فن عدم فصل ما وصلت الطبيعة» فإن حمدان رأي أن هذا لا يتبلور كما يتبلور في الشخصية الإقليمية [٥].

ومثل هذا المنهج لتحديد شخصية الإقليم «ليس منهجاً تحليليا وحسب وإنما هو

(١)جمال حمدان ـ شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان ـ كتاب الهلال ـ العدد ١٩٦ ـ دار الهلال ـ القاهرة ـ يوليو ١٩٦٧.

(٢)جمال حمدان ـ شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٧٠.

(٣)جمال حمدان ـ شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان ـ ٤ أجزاء ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٨٠/ ١٩٨٤ .

(٤)جمال حمدان ـ شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ ـ ص١١.

(٥)المرجع السابق ـ المكان نفسه .

منهج تركيبي في الصف الأول» فاقتناص «روح المكان» من أجل الوصول الي «كلمة السر» في الإقليم التى تمنحه أخصّ خصائصه وتفتح أعمق أعماقه تتطلب «دراسة هذا الإقليم »ككائن عضوي حيّ غض وفي مجموعه ككل متعضون وليس كتحليل إتلافي يمزق هذا الروح أو يفتته»، وتتطلب أيضاً اعتصار «روح المكان واستقطارها حتي يمكن استقطابه في أدق مقولة علمية، وليس تشريح هذا المكان لتقديم موسوعة كتالوجية وصفية، وهذا المنهج يحتاج الي جغرافية تركيبية في المقام الأول، جغرافية علوية رفيعة «سوبر جغرافيا» لا تقف عند حدود وصف المكان، بل تتعداه الي فلسفة هذا المكان [1].

إن هدف أي علم ـ كما اعتقد حمدان ـ هو الوصول من آلاف الفاصيل وركام المعلومات الي الكلّيات العامة والمعادلات المركّبة والقوانين الأساسية الحاكمة، كما حاول «آينشتين» اختزال الكون كله في معادلة رياضية واحدة، والجغرافيا هي علم الخاص specific لا العام generic ، علم تصويري idiographic بلغة فلاسفة المعرفة لا علم تقعيدي nomothetic، علم المتفرّد المتوحد المطلق، لا النمطي المتكرر النسبي، فلا الجغرافيا تعيد نفسها بالضبط، ولا الإقليم يكرر نفسه بصرامة، ومن ثم فلا قانون للإقليم من حيث هو، ولكن علي الجغرافيين محاولة الوصول إلي أنسب عدد من المعادلات الجزئية و«لوغاريتمات الجغرافيا» التى تعد مفتاح الإقليم وتختزل روح المكان فيه، إن لم يكن إلي المعادلة الشاملة الأحادية الحاكمة [2].

ولا تقتصر دراسة الشخصية الإقليمية ـ في رأي حمدان ـ علي الحاضر وإنما تترامي بعيداً عبر الماضي، لأنه بالدور التاريخي وحده يمكن التعرف علي الفاعلية الإيجابية للإقليم وعلي التعبير الحر عن شخصيته الإقليمية، فالبيئة قد تكون في بعض الأحيان

(١)السابق ـ ص ١٢ .

(٢)السابق ـ ص ١٣ .

خرساء، ولكنها تنطق من خلال الإنسان، ولربما كانت الجغرافيا أحياناً صمّاء، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها، وإذا كان التاريخ هو ظل الإنسان على الأرض فإن الجغرافيا هي ظل الأرض على الزمان، لهذا نجد أن البحث في الشخصية الإقليمية لم يكن من عمل الجغرافيين وحدهم، بل والمؤرخين أيضا [١].

ولكن طريق الجغرافيّ أكثر غنيَ وتنوعاً في المناهج والطرائق من غيره من الباحثين في الشخصية الإقليمية أو عنها، حيث يجمع تلقائياً بين المكان والزمان، ابتداءً من الجيولوجيا حتى الأركيولوجيا ومن الفلك حتى الأنثروبولوجيا، لهذا كانت الشخصية الإقليمية مطلباً أثيراً للعديد من كبار الجغرافيين ابتداءَ من «لابلاش» في مقدمته لكتاب تاريخ فرنسا «شخصية فرنسا التاريخية» الى «أندريه زيجفريد» في كتابه عن «سيكولوجية بعض الشعوب، ومن «هالفورد ماكيندر» في كتابه «بريطانيا والبحار البريطانية» حتى «سليمان حزين» في دراساته الأصيلة والمتعددة عن البيئة والموقع في مصر عبر التاريخ، وعن حضارة مصر أرض الكنانة [٢].

وما يعطي الجغرافي الكلمة الأولي في هذا المجال أكثر من غيره من الباحثين عن الإقليم هو أنه «متخصص في اللاتخصص» لأنه الباحث الوحيد الذي يتعامل بحرية مع كل العلوم: الطبيعية والإنسانية، والذي «يقرأ كل شيء ليكتب الجغرافيا» بعد أن يربط الأرض بالناس، والحاضر بالماضي، والمادي باللامادي، والعضوي بغير العضوي، ويكاد يتعامل مع كل ما تحت الشمس وفوق الأرض، من خلال وجهة نظر موحدة وصارمة وأصيلة هي: الإقليم والفكرة الإقليمية، والجغرافيا قد لا تكون علما

(١) السابق ـ المكان نفسه .

(٢) فتحي محمد مصيلحي ـ السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور ـ في: فتحي محمد مصيلحي «محرر» ـ سليمان حزين العالم والمفكر والإنسان ـ الكتاب التذكاري الثاني للجغرافيين ـ المجلس الأعلي للثقافة ـ القاهرة ـ ٢٠٠٦ ـ ص ١٢٣.

«خالقاً» علي مستوي الحقائق والمعلومات، غير أنها بوظيفتها الأساسية من الربط والتعليل ورصد العلاقات «تخلق» جديداً علي مستوي الأفكار والأنماط [١].

ولكن ذلك لا يعني أبداً أن الجغرافيا علم موسوعي فضفاض أو بحر لا ساحل له، بل هي علم تكاملي لكونها الجسر الواصل بين العلوم الطبيعية والإنسانية، والذي يصل ما فصل التخصص الأكاديمي الضيق، وحتي وإن بدت علي السطح علماً موسوعياً، فإنها في الجوهر علم ملحميّ علي موسوعيته، علم العَالم لا علم العلوم، وبهذا فهي ليست مجرد علم شموليّ مُعقّد «ناقل» دون إضافة، ولكنها في جوهرها الفلسفيّ علم بسيط أساساً، إنها علم «الفطرة» والتي تعني أساساً فكرة الإقليم، فالأرض مختلفة بطبيعتها، وسطحها ليس أملساً ككرة «البلياردو»، ولكنه أشبه بقطعة «الموزاييك»...(وفي الأرض قطع متجاورات...صدق الله العظيم) وما علي الجغرافيا إلا أن تطّلع وتطالع وترصد وتدرس هذا الاختلاف، ومن هذه الطبيعة جاء قدم الجغرافيا منذ أولي مراحل المعرفة الإنسانية، ثم كان استمرارها كعلم مستقل عبر العصور لا غني عنه قط، ولا بديل له علي الإطلاق [٢].

طبيعة الشخصية الإقليمية

كان حمدان يري أن طبيعة الجغرافيا الكاملة الكامنة لا تتحقق في شيء كما تتحقق في دراسة الشخصية الإقليمية، والأخيرة ـ عنده ـ ليست مجرد تقرير حقيقة علمية مطلقة يمكن إخضاعها تماماً للقياس الرياضي والإحصائي، رغم اعتمادها أساساً علي مادة علمية موضوعية بحتة، إنها عمل فني بقدر ما هي علمي، كما كتب «جلبرت» أحد دعاة الشخصية الإقليمية «إن الجغرافيا هي فن التعرف علي شخصيات الأقاليم ووصفها وتفسيرها» وأن «شخصية الإقليم كشخصية الفرد يمكن أن تنمو وتتطور

(١) جمال حمدان ـ شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان ـ مرجع سبق ذكره ـ ص١٤.

(٢) المرجع السابق ـ ص ١٥ .

وأن تتدهور، ووصفها لا يقل صعوبة» [١].

الشخصية الإقليمية أشبه شيء بالشخصية الإنسانية- فالشخصية - هذه وتلك - مركب معقد للغاية من عدد ضخم من العناصر وتوليفة معينة من السمات والقسمات والملامح والمعالم، فإذا اشتركت شخصيتان مثلا في الغالبية من هذه العناصر والقسمات، ولكن اختلفتا في قلة منها مهما تضاءلت، فليس «علينا جناحِ» أن نتكلم عن «تفرد» الشخصية في كل منهما رغم التشابه الواسع المدى، ودون أن يعني ذلك أي تنافر أو تضاد بينهما [٢].

لكن حمدان رأي أن «فن» تناول المادة العلمية لا يكفي وحده للتشخيص الإقليمي، بل لا بد من إطار من «فلسفة المكان» يحدد هذه الشخصية، بعدما اتفق مع «دبنام» حين عرّف الجغرافيا بأنها «فلسفة المكان» ومع «أندريه شوللي» الذي اعتبر الفكرة الجغرافية «نوعاً من فلسفة الإنسان باعتباره الساكن الرئيس لكوكب الأرض، ومع «ماكيندر» عندما كتب عن «الجغرافيا الفلسفية» لكن «حمدان» يوضح أن هذا أو ذاك لا يعني فلسفة غامضة محلّقة، بل فلسفة عملية واقعية، «قد ترتفع برأسها فوق التاريخ ولكن أقدامها تظل راسخة في الأرض» فلسفة تحدّق بمثل ما تحلّق، وما يؤكد ذلك أنه لا انفصال بين الجغرافيا بحالِ عن صيغة أو صبغة فلسفية ما منذ أن قال «سترابو» أن الجغرافيا من عمل الفيلسوف، الي أن قال «كون» إنما الجغرافي الجيد فيلسوف [٣].

وقبل أن يوضح «حمدان» ارتباط الجغرافيا بالفلسفة - مما يجعل لها منهجاً خلاسياً يتأرجح ما بين علم وفن وفلسفة - يبادر فيذكّر بأن الجغرافيا ذاتها وبطبيعتها علم متنافر غير متجانس في مادته الخام، ألا وهي نتائج العلوم الأخري: الطبيعية والبشرية، ومن

(١) السابق - المكان نفسه .

(٢) السابق - ص ١٦ .

(٣) السابق - ص ٢٣ .

ثم فليس من المستغرب أن يكون كذلك في منهجه، ويدعم موقفه بمقولة «ماكيندر» أن الجغرافيا فن وفلسفة معا، ومقولة «ددلي ستامب Stamp» أن الجغرافيا علم وفن وفلسفة« مضيفاً أنها: علم بهادتها فن بمعالجتها وفلسفة بنظرتها، وهذا المنهج المثلث يعني ببساطة انتقال الجغرافيا من مرحلة المعرفة (العلم) الي مرحلة الفكر (الفلسفة) مروراً بمرحلة (المعالجة)، تماما كالجبل الذي نبدأ تسلقه من قاعدته مروراً بسفحه وصولاً الي قمته [1] كما يعني الانتقال من جغرافية الحقائق المرصوصة الي جغرافية الأفكار الرصينة [2].

الجغرافيا الإقليمية الحمدانيّة

اعتقد «حمدان» أن الطبيعة المركّبة لعلم الجغرافيا لا تتحقق تحققاً كاملاً كما تتحقق في الشخصية الإقليمية، وأن دراسة الشخصية الإقليمية تبدأ حيث تنتهي دراسة الجغرافيا الإقليمية التقليدية بالمعنى المدرسيّ المعروف، ثم تتجاوزها لتمثل التتويج القمّيّ والعلويّ لها، الأولي تحدّق والثانية تحلّق، لذلك فهي أعلي مراحل الجغرافيا والفكر الجغرافي. فإذا كانت الجغرافيا الإقليمية تهتم أساساً بدراسة «جسم الإقليم» فتتناوله علي الطريقة الأكاديمية بالتشريح والتحليل لتحدد أقاليمه الثانوية ودون الثانوية وتصف معالمه وملامحه النوعية وتوزيعاته وعلاقاته المكانية، فإن هدف الشخصية الإقليمية هو «روح الإقليم» قبل جسمه وبعده، الجغرافيا الإقليمية «العادية» هي وصف المكان، بينما الشخصية الإقليمية هي فلسفة المكان، الأولي تقريرية، والثانية تجاوزية علوية super-geography [3].

(١)أحمد محمد عبد العال ـ وظائف المدن المصرية:تصنيف وظيفي مقترح ـ دار النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨٩ ـ ص ١٥.

(٢)جمال حمدان ـ شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان ـ مرجع سبق ذكره ـ ص١٧.

(٣)المرجع السابق ـ المكان نفسه .

وللتدليل علي الفرق بين الجغرافيا الإقليمية «العادية والشخصية الإقليمية أن الجغرافي قد يدرس ـ علي البعد أو علي الورق ـ إقليماً ما دراسة أكاديمية مستفيضة، يحدد خطوط التضاريس والجيولوجيا ويحلل المناخ والنبات والتربة، ويصنّف ملامح الإنسان ومعالم السكان والإنتاج والاقتصاد وغيرها، حتى إذا ما أتاه زائراً علي الطبيعة وجد نمطاً من الحياة الجارية اليومية يرتبط بصميم البيئة الجغرافية ولكنه هو شخصياً يجهله ولا تسعفه فيه دراساته السابقة عن ذلك الإقليم، هذه الحلقة المفقودة هي بالدقة روح المكان وجوهر الإقليم [١].

ودراسة الشخصية الإقليمية بهذا المفهوم لا تجبّ الجغرافيا الإقليمية ولا تلغيها، وإنما تكملها وتصحح عيوبها وقصورها، وكلتاهما علي أية حال ناقصة بغير الأخرى، ومن ناحية فليست الشخصية الإقليمية دراسة ذاتية موضوعية، ولا هيّ تقديرية أو تقييمية بدل التقريرية، وإنما هي في الأساس والجوهر تقييم علمي للدور الجغرافي وللنمط الجغرافي وللفاعلية الجغرافية، إنها جغرافية طموح تتجاوز الجغرافيا التقليدية لكنها لا تتجاوز المكان ولا العلم [٢].

(١) السابق ـ ص ١٨ .

(٢) المرجع السابق ـ المكان نفسه .